الإسلام كمرجعية لمملكة سنغاي في غرب أفريقيا خلال القرن 10هـ/16م
(مقال استعراضي)

عبدالله عيسى

قسم التاريخ والحضارة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسيك،جامعة الحسن الثاني
الدار البيضاء، المملكة المغربية

https://doi.org/10.37575/h/rel/1698

الملخص

اشتملت هذه الدراسة على ثلاثة مباحث: خُصص الأول لدراسة نشأة مملكة سنغاي، والثاني للتعريف بأهم الوسائل التي ساعدت على انتشار الإسلام بين أهالي مملكة سنغاي، والثالث -وهو جوهر البحث- تركزت الدراسة فيه على أهم مظاهر تفاعل أهالي سنغاي مع الدين الإسلامي، والذي تحول مع مرور الزمن إلى مرجعية رسمية لشعوب وسلاطين هذه المملكة، ثم تلا ذلك الخاتمة التي تشمل النتائج والتوصيات، وخلص البحث إلى أنَّ الإسلام قد أحدث تغيرًا نوعيًّا في المجتمع، حتى أصبح لا يختلف عن غيره من المجتمعات الإسلامية الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، أفريقيا، التغير المجتمعي، مملكة سنغاي.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.. وبعد:

إذا كان من السهل الحديث عن تاريخ بداية نشأة الإسلام في أفريقيا، فإنَّه من الصعب القول بأنَّ تلك النشأة قد انتهت ورست خلال مرحلة تاريخية معينة، أو أنَّ حركة الدعوة إلى هذا الدين قد أكملت دورها؛ ذلك أنَّ الإسلام لا زال -وسيظل- ينتشرُ يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة، وقرنًا بعد قرن، وهكذا إلى أنْ تقوم الساعة.

وما كان أيضًا لهذا الدين الحنيف أنْ يستمرَّ ويصمُدَ، بل يتوطَّد ويتجَذَّر طيلةَ القرون الماضية، لولا أنَّ الأفارقة أنفسَهم، على اختلاف أعراقهم وقومياتهم، قد أقبلوا عليه بمحض إرادتهم ورغبتهم، وأحاطوه بحبِّهم ونَصَروه بسيوفهم، وأسكَنُوه في أعماق قلوبهم وجوارحهم، حتى أصبح مرجعية وقدوة لهم في جميع أعمالهم وسلوكهم.

الدراسات السابقة

لم أجد مرجعًا يجمع شتات الموضوع، وقد تناول هذا الموضوع الجغرافيون والرحالة القدماء، ولكن بشكل مُبعثر يحتاج إلى تجميع وعنونة ومناقشة.

وقد تناول بعض الباحثين المعاصرين موضوع الإسلام في مملكة سنغاي، ولكن لا تخلو هذه الدراسات من ملاحظات، ومن أهم هذه الدراسات:-

- «مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493-1528»، وهي بالأصل رسالة ماجستير للباحثة جميلة التكيتك، ونشرت من قبل مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1998. قدمت خلالها الباحثة دراسة مقتضبة جدا عن الإسلام في عهد مملكة سنغاي، ولم تتطرق لموضوعنا إلا عرضا، حيث ركزت على الجانب السياسي أكثر من الجانب الديني.
- «انتشار الإسلام في القارة الإفريقية»، للمؤرخ حسن إبراهيم حسن (1963)، ويعتبر هذا المصنف من المراجع المهمة للباحث في التاريخ الإفريقي عموما، وذلك نظرًا لشموليته. ولكن هذا المرجع -شأنه شأن أغلب الدراسات- أعطى الجانب السياسي أكثر من الجانب الديني، وهذا ما يجعل إفادتنا منه محدودة.
- «تاريخ الإسلام في غرب أفريقيا» (A History of Islam in West Africa)، للمستشرق (1962) Trimingham، وهذا العمل عمل وصفي يتضمن معلومات مهمة حول مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية لمنطقة الدراسة، ولكن تبقى النظرة الاستعلائية متجذرة عند صاحبه.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى بيان الأثر الذي تركه الإسلام في مجتمع سنغاي خلال القرن 10هـ/ 16م،

وقد يتساءل القارئ، لماذا هذا القرن بالذات؟ أقول له وبكل فخر: في القرن 10هـ/ 16م حدثت جملة من المتغيرات المهمة في مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة، فأخذت تختفي تدريجيًّا المظاهر الوثنية في تصرفات الفرد اليومية، وبمرور الزمن أصبح هذا الفرد أكثر تعطشًا للإسلام، فأخذ يدافع عنه وينصره، إلى درجة أنْ أصبح مرجعية أساسية له.

كما تهدف هذه الدراسة أيضًا، إلى تعريف القارئ بأهم مراحل تاريخ مملكة سنغاي، وكيف تحولت من مملكة صغيرة إلى دولة واسعة الأرجاء، يخشاها الأعداء ويحسبون لها ألف حساب، إضافة إلى معرفة أهم الوسائل والقنوات التي ساعدت على انتشار الإسلام في بلد الدراسة، والتي أدت في نهاية المطاف إلى تفتق براعم الإسلام، وانتشار عطره في جميع أرجاء المنطقة.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في الرد على بعض الدراسات الأجنبية[1] المتحاملة -أصلاً- على الإسلام في أفريقيا، والتي تحاول دائمًا قلب الحقائق التاريخية، حيث جاءت بعض استنتاجاتها مجانبة للواقع التاريخي، ومن هذه الاستنتاجات:

- تحميل الإسلام مسؤولية انمحاء فنون أفريقيا.
- اعتبار اندماج أفريقيا الغربية في دار الإسلام شبيهًا بالاستعمار الأوربي لأمريكا.
- تأكيد أن الإسلام لم ينتشر بين الناس إلا عن طريق العنف والغزوات، ولم يشمل بشكل جدي إلا علية القوم من موظفين وأمراء.

أمام هذه الأحكام القيمية، وجدت نفسي -وبدافع علمي- أبحث في متون الكتب عن حقيقة وواقع الأمر، فتوصلتُ إلى خلاصة مفادها أنَّ كثيرًا من الدراسات الغربية غلب عليها طابع التكبُّر والنظرة الفوقية للإنسان الإفريقي، وصورته على أنه إنسان متخلف لا تاريخ له، وربطت تاريخ الشعوب الإفريقية بوصول الأوربيين إليها عن طريق الكشوف الجغرافية، متناسين تاريخ وهوية هذه الشعوب. لذا أرى أنَّ كل دراسة تصبُ في اتجاه الدفاع عن الإسلام في هذه القارة، هو إنجاز بحد ذاته، على الرغم من الصعوبات التي تواجه الباحث من قلة الوثائق والدراسات.

إشكالية الدراسة:

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية:

- كيف نشأت وتطورت مملكة سنغاي؟
- ما أهم الوسائل التي ساعدت على انتشار الإسلام في هذه المملكة؟
- ما أهم مظاهر تفاعل أهالي سنغاي مع الدين الإسلامي؟
- أين تكمن مواقع القوة والضعف في هذا التفاعل؟
- هل تقبّل أهالي هذه المملكة التغيير الجديد، أم عارضوه؟ وهل تخلوا عن معتقداتهم الدينية القديمة؟

هذه إذًا مجمل الأسئلة التي سنعمل على مناقشتها في هذه الدراسة، وهي بطبيعة الحال، لم تخلُ كغيرها من الدراسات من بعض النواقص والعيوب، لأنَّ بلوغ الكمال لله وحده.

وأخيرًا، أرجو أن تكون هذه الدراسة بمثابة لبنة جديدة في حقل التاريخ الإفريقي، ومساهمة متواضعة في إعادة كتابة تاريخ مملكة سنغاي.

المبحث الأول

(مراحل نشأة وتطور مملكة سنغاي)

يتبين من خلال استقراء المصادر التاريخية أنَّ مملكة سنغاي تُشكل المرتبة الثالثة من حيث كبر التنظيم السياسي الذي عرفته المنطقة إلى حدود القرن العاشر الهجري (16م)؛ حيث كانت في بداية أمرها مملكة صغيرة تابعة لحُكم مملكة مالي[2]، قبل أنْ تستقل عنها على يد أحد زعمائها المدعو «سني علي»[3] (870هـ/ 1464م-899هـ/ 1493)

(1) ومنها على سبيل المثال:
Delafosse, Les noirs de l'Afrique Payot, P. 48.

(2) مملكة مالي: أسسها شعب زنجي أصيل هو شعب الماندي أو الماندينغ (Manding)، وكلمة «مالي» تحريف لكلمة ماندنجو، ومعناها الذين يتحدثون لغة الماندي. وقد اعتنق هذا الشعب الإسلام في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (11م)، حيث اعتنق أول ملك منهم الإسلام حينئذ ويُعرف بالمسلماني. ويرجع تأسيس هذه المملكة إلى القرن 7هـ/ 13م، ووصلت أوج توسعها في مستهل القرن 8هـ/ 14م، خاصة في عهد السلطان منسي موسى وأخيه منسي سليمان، واستمرت هذه المملكة قائمة حتى قضى عليها أهل سنغاي عام 1488م. راجع: عيسى، الإسلام مرجعية لمملكة مالي، ص78-79.

(3) سني علي: يُعرف أيضا في بعض المصادر التاريخية باسم سني بير (Sonni Ber)، وهو المؤسس الحقيقي لمملكة سنغاي، خلف والده سني مادوجو الذي كان عسكريا

[1]، ووصلت سنغاي في عهده إلى أوجها، فتحولت في وقت قصير من مملكة صغيرة إلى دولة مترامية الأطراف[2]، (انظر الشكل رقم 1).

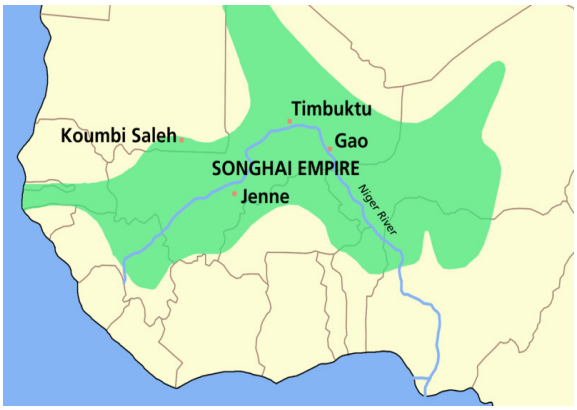

الشكل رقم (1) سنغاي والممالك التابعة لها في عام 1520م
المصدر: ويكيبيديا، خريطة مملكة سنغاي.

وبما أنَّ المجال لا يسمح بالإسهاب في توسعات سني علي الحربية، فإنَّه يتعين علينا إبراز المشاكل التي واجهته خلال فترة حكمه، وعلى الرغم من الدور الكبير الذي بذله في تأسيس مملكة سنغاي، فإنَّ سني علي كان مكروهًا من قبل شعوب المملكة لقسوته وشراسته، ولا سيما مع علماء تنبكت[3]، ولهذا ما يبرره؛ إذ إنَّ السعدي يصف استيلاءه على تنبكت بأنه: «..عمل فيها فسادًا عظيمًا، فحرقها، وقتل فيها خلقًا كثيرًا»[4]، أما محمود كعت فيشبهه بالحجاج بن يوسف الثقفي حاكم العراق الأموي (ت:95هـ/ 714م) سيّئ السمعة[5]، كما لا يتردد المغيلي في الحكم عليه بأنّه وثني[6].

مقتدرا والذي أورثه خبرات واسعة في هذا المجال. راجع: التكيتك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير، ص43.

(1) لا نعرف الشيء الكثير عن فترة حكم آل سني إلا لائحتين لملوكها، الأولى مطولة جاءت عند المؤرخ عبدالرحمن السعدي (تضم 19 ملكًا)، والثانية مختصرة أتت عند كعت (7 ملوك).

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص64.

(3) تنبكت: تأسست على نهر النيجر الأعلى، كان لها دور كبير في الحركة الثقافية والتجارية في المنطقة. تأسست في القرن 5هـ/ 11م على أيدي الطوارق، وأصبحت تنبكت في القرن 10هـ/ 16م منارةً للعلوم والثقافة الإسلامية في أفريقيا. راجع: السعدي، تاريخ السودان، ص21.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص65.

(5) كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، ص43.

(6) المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص39.

وليس لنا في هذا الجانب، إلا أنْ نتساءل بدورنا عن الأسباب التي جعلت كلاًّ من السعدي وغيره يتحاملون على سني علي، وينعتونه بنعوت ذميمة؟ هل يمكننا أنْ نأخذ بهذه الأقوال، ونعتبر سني علي كافرًا يعبد الأصنام، ولا يعرف الصلاة، ولا شرع الإسلام؟ أم نبحث عن الأسباب التي دفعت هؤلاء المؤرخين إلى نعته بتلك الصفات؟

في الحقيقة، إنَّ سني علي كان يغلب عليه طابع البداوة، ولم يكن متفقهًا بالدين، كما هو الحال بالنسبة للأسكيا محمد[7]، ولم يعرف الاستقرار، بل كان دائمًا غازيًا متنقلاً بجيوشه من معركة إلى أخرى؛ حيث كان همه الأكبر ألا ينازعه أحد في السلطة، وألا يكون ثمة ولاء لشخص آخر سواه، ولذلك خشي من علماء تنبكت، ومن طوارق مسوفة[8] أنْ يهددوا نفوذه باسم الدين، الأمر الذي جعله يتعرض لهم ويعاملهم بقسوة[9].

ومهما قيل عن تصرفات سني علي المتشددة والصارمة، فإنَّ ما ذكر حول التشكيك في إسلامه يحتاج إلى إعادة النظر؛ ذلك لأنه لم يعطِ أحد الدليل القاطع، وعلى العكس، فإنَّ المؤرخ عبدالرحمن السعدي أفاد بميل سني علي لبعض

(7) الأسكيا محمد (899-935هـ/ 1493-1528م): هو أول ملوك آل أسكيا ومؤسس حُكم دولتهم، تولى السلطة سنة 899هـ/ 1493م، بعد الإطاحة بسني بارو، آخر ملوك أسرة سني. أشار المؤرخ محمود كعت إلى أنَّ هذا السلطان كان جليل القدر بين أهله، كما كانت له من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى، ولا يوجد له مثيل لا من قبل ولا من بعد. أجمعت أغلب المصادر على حنكته وقدرته على إقامة تنظيمات إدارية جيدة، إلى أن أصيب بالعمى وعزله ابنه أسكيا موسى، وتولى الحُكم محله، وبعد الإطاحة به دخلت مملكة سنغاي منعطفًا جديدًا، تميزت بالصراع المرير بين الأمراء حول الحُكم، لهذا انتشرت في صفوفهم الحرب والفتن، وهو ما أدى إلى انهيار كل ما بناه هذا السلطان. راجع: كعت، تاريخ الفتاش، ص59.

(8) الطوارق: هم قبائل من أصول أمازيغية ولغتهم الرئيسية هي الأمازيغية، وبذلك فإنهم ينتمون إلى مجال لغوي يمتد من المغرب إلى مصر، ومن تونس والجزائر شمالا إلى النيجر وتشاد وبوركينا فاسو. يغلب الظن أن تسمية الطوارق مشتقة من اللغة العربية وإن وجد تضارب حول معناها. ويعرف الطوارق أصول تسميتهم على أساس أنها مشتقة من كلمة «كل تماشق» ومعناها «كل من يتحدث لغة الطوارق». راجع: السعدي، تاريخ السودان، ص67.

(9) انظر:
Trimingham, A History of Islam in West Africa, p. 93.

العلماء[1] وبالإضافة إلى ذلك، كان سني علي يخصص ساحات لأداء الصلاة في شهر رمضان المبارك[2] كما أكد لنا صاحب الفتاش أنَّ سني علي كان ينطق الشهادتين[3] وهذا يكفي لدحض تلك المزاعم التي أُشيعت حول شخصية سني علي. وربما يؤخذ عليه التناقض الذي أظهره عند إدارته لدفة حكمه، حيث حاول التوفيق بين الأنماط الإفريقية المرتكزة على السحر والشعوذة، وبين ما جاءت به الشريعة الإسلامية، وقد كان في هذا التناقض زعزعة لسلطته، ولا سيما أنَّ المد الإسلامي في هذه الحقبة تغلغل بصورة فعالة بين أهالي سنغاي.

توفي سني علي في ظروف غامضة عام 899هـ/ 1493م أثناء عودته من حملته ضد بلاد كرم (Kourma) [4]، والجدير بالذكر أنَّ سني علي بقي في الحكم حوالي سبعة وعشرين سنة وأربعة أشهر وخمسة وعشرين يومًا، حسب رواية صاحب الفتاش[5]. وبعد وفاته خلفه ابنه سني بار، الذي لم يتجاوز سنة واحدة على العرش، وسرعان ما قام عليه أحد القواد العسكريين الكبار، وأزاحه عن الحُكم، واستحوذ عليه، ولُقِبَ بـ»أسكيا»[6]، وهو محمد توري الذي أعلن عن تأسيس أسرة جديدة عُرفت بأسرة أسكيا، ودام عهدها قرابة قرن من الزمن (انظر جدول رقم 2)، شهدت خلالها مملكة سنغاي فترة من الرخاء والازدهار قل نظيرهما، غير أنّه مباشرة بعد وفاة السلطان أسكيا داوود[7] عام 990هـ/ 1582م، دخلت البلاد في مرحلة اتسمت بالضعف والوهن بسبب هجومات الفولانيين[8] والبمبارا[9] والطوارق عليها، مما ساعد بعض الأقاليم على الاستقلال عن الحكم المركزي[10] في غاو (Cao)[11].

جدول رقم (2): شجرة ملوك أسرة أسكيا[12]

1	أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر	899-935هـ/ 1493-1528م
2	أسكيا موسى	935-937هـ/ 1528-1531م
3	محمد بُنْكَن	938-944هـ / 1531-1537م
4	إسماعيل	944-946هـ/ 1537-1539م
5	إسحاق الأول	946-956هـ/ 1539-1549م
6	داود	956-990هـ/ 1549-1582م
7	الحاج محمد الثاني	991-995هـ/ 1582-1586م
8	محمد باني	995-997هـ/ 1586-1588م
9	إسحاق الثاني	997-999هـ/ 1588-1591م
10	محمد غاو	999هـ / 1591م

وفي ظل هذه الأوضاع المتدهورة وصلت طلائع الحملة السعدية التي أرسلها أحمد المنصور السعدي عام 999هـ/ 1591م، فانهارت على أثر ذلك مملكة سنغاي، ونزح ما تبقى من أمراء الأسكيين إلى مدينة دندي[13] في أقصى جنوب شرق المملكة المتهاوية[14].

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص66.

(2) انظر:
Elias, History of Timbuktu: the Role of Muslim scholors and notables 1400-1900, p. 11.

(3) كعت، تاريخ الفتاش، ص43.

(4) السعدي، تاريخ السودان، ص71. تقع بلاد كرم أو كروم عند منعطف ثنية نهر النيجر.

(5) كعت، تاريخ الفتاش، ص52.

(6) أسكيا: تعني الملك أو السلطان.

(7) حكم أسكيا داوود مملكة سنغاي مدة طويلة بالمقارنة مع باقي السلاطين من أسرته؛ حيث دامت فترة حكمه قرابة ثلاثة وثلاثين عامًا، ويصنف عهده من أزهى فترات حُكم الأسكيين. راجع: عمر موسى، دراسات إسلامية غرب إفريقية، ص89.

(8) تنتشر هذه القبائل حاليًا في كل من: السنغال، وموريتانيا، ومالي، وبوركينا فاسو، والنيجر، ونيجيريا، وتشاد. راجع: أحمد، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، هامش ص37.

(9) البمبارا: هي قبيلة عرقية وثنية سوداء، تقطن ببلاد كارطا (Karta) في شمال شرق نهر السنغال. راجع: عيسى، الاستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال، هامش صفحة 29.

(10) الشكري، التأثيرات الثقافية المتبادلة ما بين المغرب ودول أفريقيا جنوبي الصحراء، ص272.

(11) غاو: تقع مدينة غاو ضمن الحدود السياسية لدولة مالي الحالية. راجع: عمر موسى، دراسات إسلامية غرب إفريقية، ص76.

(12) نقلًا عن: السعدي، تاريخ السودان، ص125–133. كعت، تاريخ الفتاش، ص124–141.

(13) مدينة تندي: تُعرف أيضا في المصادر التاريخية باسم دَنِدِ (Dendi)، وهي تقع على نهر النيجر. راجع: عمر موسى، دراسات إسلامية غرب إفريقية، ص81.

(14) يمكن القول إنَّ العلاقات بين المغرب ومملكة سنغاي

المبحث الثاني
(أهم الوسائل التي ساعدت على انتشار الإسلام في مملكة سنغاي)

لقد انتشر الإسلام في مملكة سنغاي بشهادة كثير من مصادرنا التاريخية[1]، بفضل ثلاث وسائل رئيسية، وهي:

- طرق القوافل التجارية.
- التجار العرب المنتمون لشمال أفريقيا ومصر.
- الدعاة الأفارقة.

غير أنَّ العامل الأهم -في نظرنا- والذي ساعد في انتشار الإسلام في تلك المنطقة يعود إلى الدين الإسلامي نفسه؛ فهو ذو نظام اجتماعي راق يدعو إلى المساواة بين الناس، لا يُقيم وزنًا لفوارق اللون أو الطبقة، وإنما ينظر إلى ما يفعله العبد من أعمال صالحة، لذلك فإنَّ الدين الإسلامي كثيرًا ما يوصف بأنّه أكثر الأديان عدلاً.

ومنذ اكتمال مراحل التعريب وسيادة الدين الإسلامي في مناطق المغرب العربي في القرن الثاني الهجري (8م)، بدأت القبائل العربية تتوغل نحو الجنوب حتى وصلت إلى السودان الغربي[2]، ولم تقف الصحراء عائقًا دون تواصل الروابط والصلات المتعددة، فقد كانت طرق ما وراء الصحراء ومسالكها ومنافذها من العوامل المهمة التي ساعدت في تدفق المؤثرات العربية الإسلامية إلى مملكة سنغاي.

وبدأت رقعة الإسلام في حالة انتشار مستمر، حتى شبهها بعض المؤرخين، كبقعة الزيت، ولا سيما بعد سقوط غانة الوثنية[3] عام 496هـ/ 1076م على أيدي المرابطين[4]. ونجم عن هذا المد القادم من الشمال قيام ممالك إفريقية إسلامية بلغت تقدمًا حضاريًّا ملحوظًا نتيجة اعتناقها الإسلام.

ومثلما كانت طرق القوافل التجارية شريانًا للمعاملات الاقتصادية بين مراكز الشمال الإفريقي وبين الغرب الإفريقي، فقد ظلت -في الوقت نفسه- إشعاعًا للمؤثرات الثقافية؛ حيث أصبحت المحطات المنتشرة على طول طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى أماكن لاحتكاك الأفكار تأثيرًا وتأثرًا، وذلك بفضل ما تقدمه للمسافرين من مأوى وسبل الراحة والاستجمام. كما ازدهرت المراكز التجارية المهمة في مملكة سنغاي من

استمرت على الوتيرة نفسها التي كانت بين مالي وبني مرين حتى القرن الثامن الهجري (14م)، ومع تغير الحاكم السياسي لكلا المنطقتين، إذ سيتولى السعديون حكم المغرب، وسيحكم ملوك سنغاي منطقة السودان، ستتغير هذه العلاقات مع ميل ميزان القوى لصالح السعديين الذين سيسعون إلى الاستيلاء على مملكة سنغاي وثرواتها. ويعتبر كثير من الباحثين أنَّ هذه الحادثة أي» استيلاء المغرب على مملكة سنغاي» أول وآخر اصطدام عسكري بين الجانبين. راجع: الصادقي، أضواء على الثقافة العربية في أفريقيا، ص22.

(1) انظر على سبيل المثال: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ص339.

(2) السودان الغربي: وهو مصطلح يطلقه معظم المؤرخين على ما يعرف اليوم بأفريقيا الغربية، ويمتد نظريًّا من المحيط الأطلسي غربًا وبحيرة تشاد شرقًا، إلى نطاق الغابات الاستوائية وجنوب الصحراء الكبرى شمالاً. راجع: عيسى، الاستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال، ص46.

(3) مملكة غانة: ارتبط اسم غانة عند معظم الجغرافيين المسلمين بالذهب، فمنهم من جعلها بذاتها موردا مهما لهذه المادة، وأغلبهم اعتبرها بوابة بلاد التبر. وصفها البكري والإدريسي -في أوج عظمتها- وقالا إنها مدينتان: واحدة للملك، وأخرى يسكنها المسلمون. وقد كان حدود مملكة غانة في ذلك العصر القرن (5 و6هـ/ 11 و12م) تشمل جنوب موريتانيا وشرقي السنغال وجزءا من مالي وغينيا الحالية، ولا يربطها مع غانا الحالية سوى الاسم. راجع: الإدريسي، أنس المهج وروض الفرج: قسم شمال أفريقيا وبلاد السودان، ص253.

(4) الدولة المرابطية: تعود جذور الدولة المرابطية الأولى إلى حجة «يحيى بن إبراهيم الكدالي» أو «اللمتوني» الذي التقى في عودته من الحج سنة 427هـ بشيخ المالكية أبي عمران الفاسي الذي طلب منه أن يرسل معه أحد تلامذته ليعلم الناس أمور دينهم، فبعثه بدوره إلى أحد تلاميذه ببلاد سوس وهو وكاك بن زلو اللمطي الذي انتدب للمهمة تلميذه عبدالله بن ياسين فتحمس للفكرة، وسافر نحو الصحراء.

بدأت الحركة كدعوة إصلاحية لكنها سرعان ما تحولت إلى حركة جهادية أطلق عليها فيما بعد «الحركة المرابطية» نسبة إلى الرباط الذي ترجح الدراسات الحديثة أنه مشتق من المرابطة في الجهاد خلافا لما كان شائعا من أنه نسبة إلى مكان كان يرابط فيه عبدالله بن ياسين يقع على النهر أو في البحر. وقد توسعت الحركة في موريتانيا وسيطرت على قبائل صنهاجة (اكدالة، لمتونة، مسوفة) قبل أن تولي وجهها شطر المغرب، وتقاتل في جنوبه، حيث توفي عبدالله بن ياسين 451هـ/ 1059م، لتبقى السلطة في يد أبي بكر بن عمر، الذي واصل ضم بلاد المغرب، إلا أن شجارا وقع في الصحراء اضطره إلى العودة هناك، وبعدما أصلح بينهم، عاد إلى المغرب ليتنازل عن السلطة ليوسف بن تاشفين في واقعة ترجعها بعض الروايات إلى مشورة زينب النفزاوية التي أشارت على يوسف بذلك، وبتنازله ينتهي عصر الحركة المرابطية في الصحراء، ويبدأ عهدها الجديد في المغرب. راجع: عبدالله ولد المصطفى، التدخل الفرنسي في موريتانيا، ص7.

الناحيتين الاقتصادية والثقافية وأشهرها، كاو[1]، وجني[2]، وتنبكت.

وإلى جانب إنعاش المجالات الاقتصادية، أدت بعض المراكز في الشمال الإفريقي مثل طرابلس وتلمسان ومراكش والقاهرة دورًا بارزًا في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في تلك المناطق[3].

ومما لا شك فيه، أنَّ مملكتي مالي وسنغاي لم تصلا إلى ما وصلتا إليه من عظمة وقوة إلا بعد أنْ أضحى الإسلام عصب قوتهما الروحية والمادية، وصارت اللغة العربية لغة الكتابة الرسمية.

وقد كان التاجر المسلم داعية لدينه يجمع بين نشر الدعوة الإسلامية وبيع سلعته، فالتجارة من طبيعتها أنْ تصل التاجر بصلة وثيقة بمن يتعامل معهم، خاصة وأنّه كان يتحلى بالصدق والأمانة والخلق الحسن، وهذه المُثل الأخلاقية السامية كثيرًا ما تتوافر لدى التاجر المسلم الذي سرعان ما يلفت إليه الأنظار عند دخوله لقرية وثنية، وذلك نظرًا لكثرة وضوئه، ونظافته، وانتظام أوقات صلاته وعبادته. وقد جعلته هذه الصفات الحميدة بالإضافة إلى نظافة البدن والملبس أهلاً لثقة الأهالي الوثنيين، وقدوة حسنة للاقتداء به وتقليده.

ومن الجدير بالذكر أنَّ دور التجار العرب لم يقتصر على مجالات التجارة والأنشطة الاقتصادية فحسب، بل تعداها إلى الدعوة إلى الدين الإسلامي، وتعميق الصلات الثقافية بنشر اللغة العربية، وبناء المساجد والمدارس لتعليم القرآن. وهكذا، أضحى التجار العرب يقومون بمهمة الدعاة المسلمين، إلى جانب نشاطهم التجاري، فحملوا معهم العقيدة الإسلامية والحضارة العربية. وكان من نتائج احتكاكهم واختلاطهم بأفارقة أنْ حدث التزاوج والمصاهرة، وانتشار الإسلام تدريجيًّا وسلميًّا في تلك البقاع. فالدعاة، سواء أكانوا من العرب أم من الوطنيين الأفارقة، يعتبرون وسيلة من الوسائل التي ساعدت على ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وقد كانوا يدعون الناس إلى الإسلام، ويفقهونهم في أمور دينهم، وذلك لإلمامهم بأصول الدين والشريعة الإسلامية ومبادئها السامية. لذا حظي هؤلاء الدعاة بتقدير الأهالي لهم، إذ أصبحت كثير من قرى سنغاي في أيام الأسكيا الحاج محمد تضم كل منها دارًا لاستقبال هؤلاء المعلمين الفقهاء الذين كانوا يعاملون بأعظم مظاهر الاحترام[4].

ويلاحظ أنَّ معظم أولئك المعلمين قد درسوا في المراكز الثقافية في الشمال الإفريقي ومصر، وتأهلوا للدعوة الإسلامية بين الأهالي والتأثير فيهم.

وتُطالعنا المصادر التاريخية بأنَّ السلطان الأسكيا الحاج محمد كان حريصًا على الاقتداء بالدعاة المسلمين، وعلى إرسال طلاب العلم إلى تلك المنارات العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي -مثل فاس والقاهرة وطرابلس- لينهلوا من منابعها ويعودوا إلى أوطانهم ليساهموا بشكل أو بآخر في نشر الإسلام بين ربوعها. وقد وجد الدعاة تشجيعًا كبيرًا من الأسكيا ومن جهاته الرسمية، وفي ظل هذا التشجيع، بدأ الدعاة والفقهاء والمحسنون في تأسيس المدارس التي كانت قِبلة لأبناء المسلمين والوثنيين على حد سواء دون تمييز، الأمر الذي أدى إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بنجاح باهر بين أهالي سنغاي. وأصبحت هذه المدارس تتكاثر وتزدهر حتى إنَّ بعضها أضحى مركز إشعاع حضاري يستقطب أبناء مملكة سنغاي بصفة خاصة، وأبناء أفريقيا الغربية بصفة عامة، دون اعتبار لفارق الدين أو اللون[5].

وتجلت مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في سنغاي في عهد الأسكيا محمد وخلفائه، وترتب عليها تكوين حكومة ونظم إدارية متقدمة، بحيث انتقلت منها حياة المجتمعات القبلية المتفككة إلى مجتمع الدولة المركزية، وحدث الامتزاج الكامل بين النظم العربية الإسلامية وبين الأنماط الإفريقية المحلية، وتكون عنصر جديد يوائم بين ما غرسه الإسلام من ثقافة عربية، وبين بعض الموروث من التقاليد والأنماط الإفريقية؛ أي برزت الشخصية

(1) تقع كاو (Gao) على شاطئ نهر النيجر، وقد كانت عاصمة لمملكة سنغاي. راجع: الإدريسي، أنس المهج وروض الفرج، ص278.

(2) جني: تقع حاليًا في دولة مالي إلى الجنوب من مدينة تنبكت. راجع: أحمد، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، ص35.

(3) التكيتك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير، ص157.

(4) حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص213.

(5) التكيتك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير، ص159.

الإفريقية في إطار إسلامي.

والمعروف أنَّ سلاطين الممالك الإفريقية قد درجوا على الخروج إلى الحج في مواكب حافلة تضم أعدادًا كبيرة من الأفارقة، وقد أسهمت هذه الرحلات الحجية في توطيد العلاقات التجارية والثقافية بين الممالك الإفريقية وبين أقطار المغرب العربي ومصر والحجاز، كما ساعدت في التعريف بتلك الممالك، ونتيجةً لذلك، توافد إليها التجار والعلماء والفقهاء، من شتى أرجاء العالم العربي والإسلامي.

المبحث الثالث

(من مظاهر تفاعل أهل سنغاي مع الدين الإسلامي)

تتفق أغلب المصادر التاريخية على أنَّ الإسلام عرف ازدهارًا ملحوظًا خلال فترة حكم الأسكيين. ويمكننا تلخيص أهم مظاهر هذا الازدهار بالجوانب التالية:

1. **التقرب من العلماء (إطار التحالف):**

نجمعُ تحت كلمة علماء كل الفعاليات التي ساهمت إلى جانب الأسكيين في التسيير الديني والاجتماعي لبلاد السودان، والتي تولت الخطط الدينية والتعليمية؛ مثل القضاء والإمامة والتدريس وغيرها، والتي كانت توفر السند الأيديولوجي[1] لهم، وحكموا البلاد وفق توجيهاتها الدينية والسياسية.

كانت علاقة الطرفين تتميز بالتحالف والمصالح المشتركة، ويبدو أنَّ السياق العام الذي يُفسر هذا التحالف والذي وصل إلى درجة الولاء هو العداوة المشتركة للفترة السابقة لحكم الأسكيين للسودان؛ أي فترة سني علي الكبير، هذا الأخير الذي تسلط على العلماء بالقتل والإهانة والإذلال حسب شهادة مؤرخي تنبكت[2].

ونظرًا لدور هذه الفئة في المجتمع، حرص سلاطين آل أسكيا على التقرب منها بكل الوسائل؛ إذ أغدقوا عليها أشكالا مختلفة من العطاءات، تشمل ضيعات شاسعة وأفواجا من العبيد، هذا بالإضافة إلى مصاحبتهم في الحج والجهاد وفي أمور شتى[3].

لقد كان أسكيا الحاج محمد صاحب الريادة في هذه السياسة، يقول كعت: «..لا يقوم لأحد إلا للعالم أو الحجاج إذا قدموا من مكة»[4].

كما كان آل أسكيا يجزون لهم العطاء، وكان أهمها وأكبرها ما أعطاه أسكيا الحاج محمد للعالم أحمد الصقلي[5] بعد وصوله إلى كل من تنبكت وكاغ[6] ؛ حيث أغدق عليه العطايا الكثيرة منها: «مائة ألف دينار وخمسمائة من الخدم ومائة إبل ضيافة له»[7]. ومنها أيضا ما حدث مع الفقيه محمد تل[8]، الذي أعطاه هذا السلطان مزرعة واسعة يفوق طولها مرحلتين من السير[9].

وتتجلى المكانة المعتبرة للقوى الدينية عند آل أسكيا أيضًا من خلال التقدير والاحترام الذي حظيت به داخل بلاطهم، وفي حكمهم لسنغاي وفق توجيهاتها. ومن الأمثلة عن العلماء الذين كانت مكانتهم كبيرة وكلمتهم مسموعة لدى الأسكيين، العالم صالح جور، الذي أمر أسكيا الحاج محمد بجعل غزواته في بلاد السودان جهادًا في سبيل الله، ثم العالم الفع كعت الذي أرغم أسكيا داوود على تقبيل يد أحد عبيده ردًّا على احتقاره له بعد عودته من الحج. والعالم محمود بن عمر أقيت الصنهاجي التنبكتي[10] (868هـ/ 1463-

(1) أي السند والمرجعية الفكرية.

(2) السعدي، تاريخ السودان، ص64.

(3) كعت، تاريخ الفتاش، ص39.

(4) المرجع نفسه، ص11.

(5) كان قاضي القضاة بمملكة سنغاي، برع في علم الحديث والفقه والتاريخ. راجع: التنبكتي، كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج، ج1، ص375.

(6) كاغ: وتعرف في بعض المصادر باسم: كَوْكَوْ، وتقع على شاطئ نهر النيجر. راجع: الإدريسي، أنس المهج وروض الفرج، ص278.

(7) المصدر نفسه، ص18.

(8) كان رحمه الله تعالى عالمًا فقيهًا فاضلاً صالحًا. ارتحل من جنج إلى تنبكت وتوطن فيها، توفي رحمه الله في صدر ولاية القاضي العاقب ابن القاضي محمود بن عمر، سنة 973هـ. راجع: كعت، تاريخ الفتاش، ص32.

(9) المصدر نفسه، ص35.

(10) هو الفقيه والقاضي محمود بن عمر بن محمد، سليل أسرة أقيت صاحبة الشهرة والصيت الكبير والمكانة الثقافية والعلمية العالية في بلاد السودان منذ القرن التاسع الهجري (15م). ولد في تنبكت عام 868هـ/ 1463م، وكان يكنى بأبي المحاسن، وتصفه بعض المصادر التاريخية ببركة عصره، أو سيدي ولي الله تعالى، دليلا على المكانة العالية التي كان يحوزها من جهة، والاعتقاد بأنه من الأولياء والصالحين من جهة أخرى. راجع: التنبكتي، كفاية المحتاج، ص245.

955هـ/ 1550م)، الذي وصفه محمود كعت بأنه: «.. من خيار عباد الله الصالحين، ذو تشبث عظيم في الأمور وهُدى تام وسكون ووقار وجلالة لا يخاف في الله لومة لائم، هابه الخلق كلهم، السلطان فمن دونه، فصاروا تحت أمره يزورونه في داره متبركين به»[1].

خلاصة القول، لقد أفضى الجهد الذي بذله السلطان أسكيا الحاج محمد في تقريب العلماء إلى نتائج مهمة؛ إذ كتب علماء عصره في مختلف العلوم الإسلامية النقلية والعقلية كما هو الحال في العالم الإسلامي وقتئذ، إضافة لإنتاجات ذات طابع تاريخي.

2. حركة الجهاد الإسلامي ودوره في اتساع رقعة الدولة:

إنَّ الإسلام كما هو معروف قد شق طريقه في أفريقيا بجهود بسيطة وسهلة، اعتمدت على التجار المسلمين الذين أحوجتهم ظروف العيش إلى دخول هذه البلاد. وإلى جانب هؤلاء التجار كان هناك الدعاة الذين أسهموا بدور فعَّال في نشر الدين الإسلامي. وقد رأى الإفريقي في تصرفات هؤلاء التجار والدعاة وسلوكهم الشخصي القدوة الحسنة التي اقنعته بصدق هذه الرسالة، التي لا تُقيم وزنًا للون أو جنس أو جاه، بقدر ما تُقيم وزنًا لطاعة الله وتوحيده، وحُسن معاملة الآخرين، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهَّ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2]. ولذلك تقبل الأفارقة الإسلام وقاموا بنشره بين ظهرانيهم.

إنَّ فتوحات أسكيا الحاج محمد في بلاد الهوسا[3] تعتبر من أهم وأعظم فتوحاته، وذلك لما حققه من إخضاع لأهم مدن هذه المنطقة الحصينة، الواحدة تلو الأخرى: جوير[4]، وكانو[5]، وزاريا[6]، وكاتسينا[7]. وبذلك أصبحت مساحة هذه البلاد شاسعة، تمتد من شرقي النيجر حتى بحيرة تشاد. ولكن يبقى السؤال المطروح هنا: هل ما قام به الأسكيا الحاج محمد يأخذ طابعًا جهاديًّا؟ أم أنَّ له أغراضًا أخرى، وتستر باسم الجهاد والدين لكي يحققها؟

إنَّ بعض المؤرخين ولا سيما المستشرقين الأوربيين اعتبروا أنَّ هدف الأفارقة المسلمين من حروبهم ضد المجتمعات الأرواحية[8] هو الاستعباد والاسترقاق. وقد حاول هؤلاء الكُتّاب النيل من حركة الجهاد الإسلامي والتقليل من شأن العلاقات الحضارية التي كانت تربط العرب والأفارقة، ومن هؤلاء المستشرقين جي. سبنسر ترمنجهام الذي ألف ست كتب عن الإسلام في أفريقيا، والمؤرخ أي.م. لويس صاحب كتاب «أفريقيا جنوب الصحراء» وغيرهم.

في الحقيقة، أغفل هؤلاء المستشرقون حقيقة مهمة مفادها أنَّ حركة الجهاد التي تبناها الأسكيا الحاج محمد جاءت من منطلق الغلبة السياسية للمسلمين في بلاد السودان وفي نطاق الدفاع عن النفس. ومما يؤكد ذلك مشاركة الأرواحيين الجماعات الإسلامية الوطن الواحد وقتًا طويلاً، في روح من التسامح الديني[9].

وفي المقابل، يمكننا القول إنَّ حركة التوسع التي اتخذها الأسكيا تحت ستار الدين لم يكن الدين النقطة الرئيسية فيها، بل كان المخطط السياسي الأهم في هذه العملية. وعلى الرغم من هذا وذاك، فإنه لا يمكن إنكار تحمس الأسكيا للإسلام، وبذله في سبيل نشره الكثير، والأهم من ذلك أنَّه لم يُكره أحدًا على الإسلام بل كان متسامحًا مع رعاياه

(1) كعت، تاريخ الفتاش، ص34.
(2) سورة الحجرات، الآية 13.
(3) بلاد الهوسا: هكذا ترد في النصوص العربية القديمة، والكُتَّاب المحدثون لا يتقيدون بهذا الرسم، فبعضهم يكتبها هكذا: «الحوص» وبعضهم يكتبها «الهوسا». وتشغل شمال نيجيريا. راجع: عيسى، الإسلام مرجعية لمملكة مالي، ص82.
(4) تقع هذه المدينة في نيجيريا، وهي مقاطعة من مقاطعات مملكة الهوسا. المرجع نفسه، ص7.
(5) تقع بلاد كانو أقصى نيجيريا. راجع: عيسى، الإسلام مرجعية لمملكة مالي، ص83.
(6) هي مقاطعة من مقاطعات مملكة الهوسا. المرجع نفسه، ص7.
(7) تقع شرقي مدينة دندي، على نهر النيجر. المرجع نفسه، ص7.
(8) الأرواحية: مصطلح حديث يستعمله الباحثون في الدراسات الإفريقية للدلالة على المعتقدات الوثنية القديمة في أفريقيا جنوبي الصحراء.
(9) التكيتك، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير، ص64.

الأرواحيين. ومهما تعددت الأسباب من وراء هذه الفتوحات، فإنَّ الغرض الأساسي هو نشر الإسلام دون إكراه والدفاع عنه. ومن خلال تتبع حركة الفتوحات في بلاد السودان يُلاحظ أنَّ معظم الأقاليم تفتح أكثر من مرة وذلك بسبب تمردها؛ لذلك وجبَ فتحها من جديد وإخضاعها بقوة السيف[1].

وأخيرًا، يمكن القول إنَّ حركة الجهاد الإسلامي أسهمت في اتساع رقعة الدولة؛ ففي حين كانت مملكة سنغاي لم تتجاوز في الحقب السابقة المناطق المحيطة بالنيجر الأوسط ومنحناه الأعلى، فإنّها قد بلغت في عهد الأسكيا الحاج محمد أوج اتساعها بحيث تجاوزت حدود مملكة مالي التي سبقتها، وضمت مناجم الملح في تغازة[2]، وشملت شرقًا بعض إمارات الهوسا، حتى تاخمت بورنو[3]، وامتدت شمالاً إلى حدود المغرب الأقصى.

3. ازدهار الحركة الثقافية:

شهدت مملكة سنغاي خلال القرن العاشر الهجري (16م) حركة فكرية عربية إسلامية عظيمة الازدهار، وسادت فيها نزعة إنسانية سودانية ارتكزت على الإسلام بوصفه دينًا عالميًّا.

وشكلت المدن مراكز لهذه الحركة الفكرية، فبعد أنْ تلقت صفوة من أبناء السودان علومها في جامع القرويين في المغرب، أو في جامع الأزهر في مصر، وتحررت فكريًّا، اجتهدت حتى بلغت القمة في العلوم الدينية والإنسانية، وانكبت على خدمة الدين والعلم في بلاد السودان. واجتذب الرخاء العام إلى مدن النيجر؛ مثل تنبكت وجني وغاو، ووفد إلى تنبكت علماء من شتى أقاليم السودان وشمال أفريقيا والأندلس، الذين تركوا آثارًا علمية واضحة في الحياة الفكرية والثقافية والسياسية، وقد كان الفقيه محمد بن عبدالكريم المغيلي من المثقفين في عصر الأسكيا الحاج محمد، وهو الذي استطاع بفكره أنْ يؤثر على الناس في بلاد السودان[4].

ومع مرور الزمن، أصبحت مدينة تنبكت مركزًا مهمًّا من مراكز التحصيل العلمي، ونشر المعرفة في العالم الإفريقي. فقد كانت تضم عددًا كبيرًا من المدارس الحُرة، ولا سيما جامعة سنكري التي أصبحت مركزًا من مراكز التعليم العالي في العالم الإسلامي[5].

ففي القرن العاشر الهجري (16م)، ازداد عدد المدارس القرآنية، التي كانت فيها الدراسة على مستويين[6]:

التعليم الأولي: وتتولاه المدارس القرآنية التي تقوم بتعليم القرآن وتحفيظه.

والتعليم العالي: ويتلقى فيها طلاب العلم العلوم الإسلامية.

وكانت جامعة تنبكت، مثل الجامعات الإسلامية الأخرى المعاصرة لها، تُدرس العلوم الإسلامية التقليدية؛ أي علوم التوحيد والتفسير والحديث، والفقه المالكي، إضافة إلى البلاغة والمنطق والحساب وعلم الفلك[7].

اعتبارًا لما تقدم، يمكن القول إنَّ تنبكت هي أهم مدينة حضارية وعلمية وثقافية في منعطف النيجر، وقد استمر مركزها بالتعاظم طوال القرن العاشر الهجري (16م) وذلك حينما أصبحت حاضرة العلماء المسلمين في فنون العلوم الإسلامية خاصةً، وعلوم الرياضيات والحساب والفلك. وأسهمت مع شقيقتيها جني وغاو في إثراء الحركة الفكرية والعلمية في أفريقيا والعالم الإسلامي. ولكن في الوقت نفسه، هذه الطفرة الفكرية لم تستطع أنْ تقضي بشكل كُلي على التقاليد الأرواحية الموروثة، فنجد أنَّ بعض الناس يمزجون ما بين التعاليم الإسلامية والتقاليد الأرواحية في حياتهم اليومية.

4. إخضاع المعاملات الاقتصادية للشرع الإسلامي:

سعى السلطان أسكيا الحاج محمد إلى إخضاع المعاملات التجارية للشرع الإسلامي؛ حيث

(1) المرجع نفسه، ص65.

(2) تغازة: يرد هذا الاسم في المصادر بصيغ مختلفة: (أمجارة، ونكارتا، ونكارة..)، وكلها تعني منطقة الذهب (بلاد التبر) المحصورة بين نهر الفاليمي والنيجر الأعلى. راجع: الإدريسي، أنس المهج وروض الفرج، ص260.

(3) بورنو: قامت هذه المملكة حول بحيرة تشاد، في المنطقة التي تشكل النهاية الجنوبية لطريق القوافل الكبير المار بفزان ووحدات الكوار. وتعد من أكبر ممالك السودان الأوسط، ويعد إدريس علومة (1405–1526) من أشهر ملوكها وأقواهم. فذاع صيت هذه المملكة في أوربا حيث ورد اسم ملكها «دوناما» في الخرائط القشتالية في القرن التاسع الهجري (15م). راجع: عيسى، الاستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال، ص42.

(4) المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص9.

(5) السعدي، تاريخ السودان، ص19.

(6) كعدان، تاريخ إفريقية الحديث والمعاصر، ص27.

(7) الموضع السابق نفسه.

قام باختيار أمناء نزهاء لجمع الزكاة، وتحصيل الضرائب وتوزيعها على مستحقيها، كما أمر بمعاقبة كل رافض لتأديتها، وأخضع تحصيلها لإشراف القاضي الذي اكتفى بفرض الضرائب الشرعية دون غيرها، كما عيّن محاسبين في الأسواق لضبط المعاملات التجارية في المدن، واختار مترجمين يجلسون مع السماسرة في الأسواق لتسهيل التعامل بين التجار.

بالإضافة إلى ذلك، قام الأسكيا بتوحيد المكاييل والموازين، وحارب الغش والتدليس في البيوع، وأصدر أمره بطرد التجار الذين يطففون في المكيال والميزان، والذين يغشون في تجارة الذهب والفضة والنحاس، أو يخلطون اللبن بالماء، أو لا يؤدون ثمن السلع لأصحابها[1].

إلى جانب المعاملات التجارية، تزخر المصادر المحلية بإشارات كثيرة حول ما كان يعطيه هذا السلطان من الزكاة والأعشار لمن يستحقها؛ وحسب السعدي فقد تصدق أسكيا الحاج محمد بألف مثقال ذهبًا على يد الشيخ الفقيه أبي عبدالله القاضي مؤدب محمد الكابريّ[2]، وفرقه على المساكين في باب مسجد سنكري، وحذا حذوه كثير من العلماء مثل عبدالله بن محمد، فكان من عباد الله الصالحين زاهدًا سخيًّا، أخرج من ماله كله صدقة لله، وكانت تأتيه النذور وأموال الفتوحات، فلا يمسك منها شيئًا بل يتصدق بها للفقراء والمساكين، واشترى كثيرًا من العبيد وأعتقهم لوجه الله تعالى وابتغاء الدار الآخرة[3].

5. محاربة البدع والمنكرات والظواهر المنافية للشرع:

كان أسكيا الحاج محمد شديد التمسك بمحاربة البدع المخالفة للشرع داخل بلاده، مثل اختلاط الرجال بالنساء في الأسواق، وظاهرة التعري؛ حيث طالب الأهالي بارتداء ملابس تستر عورتهم، بعد أنْ كانت هذه الظاهرة شائعة في المجتمعات الإفريقية حتى المسلمة منها، كما أخضع الإرث للنظام الإسلامي؛ أي الكتاب والسنة، وتتضح هذه التحولات التي شهدها نظام الإرث، والمعاملات اليومية في عهده من خلال الأسئلة التي وجهها للعالم المغيلي[4].

إلى جانب المظاهر سالفة الذكر، كثرت مؤشرات ازدهار الإسلام في عهد هذا السلطان، وهي تتجلى في تعدد الأسر العلمية، خاصة في تنبكت كما هو الأمر بالنسبة لأسرة أقيت، وأندغ، وبغيغ؛ حيث لاحظ الرحالة الحسن الوزان أنَّ تنبكت يوجد بها عدد كبير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع السلطان إليهم جميعًا مرتبًا حسنًا[5].

مفاد القول: تبين لنا في الصفحات السابقة أنَّ أسكيا الحاج محمد بذل جهدًا كبيرًا من أجل ازدهار الإسلام في عهده، حيث قدَّر العلماء، واحترمهم، وزارهم في بيوتهم، واستشارهم في أمور الشرع، كما حارب البدع والخرافات، وأخضع الحياة الاقتصادية والاجتماعية للشريعة الإسلامية.

الخاتمة

يتضح جليًّا من النماذج التي استعرضناها أنَّ وضعية الإسلام والثقافة العربية الإسلامية، على عهد مملكة سنغاي، تُبشر بآفاق رحبة، وبمستقبل أفضل، فأصبح الإسلام مرجعية دينية لهذه المملكة سواءً على المستوى الرسمي أو الشعبي، فأحدث الإسلام تغيرًا مهمًّا في حياة الفرد الإفريقي، وهذا التحول، لم يكن ليحدث والثقافة الأرواحية لا زالت منتشرة انتشارًا كبيرًا، فقد تخلت شعوب إفريقية كثيرة عن دياناتها القديمة منذ منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، وأصبحت تقاليدها تتفكك بمرور السنوات حتى لم تعد تقتصر إلا على بعض العادات القليلة.

وعليه يمكننا القول وبكل اطمئنان: إنّ الإسلام قد أدخل إلى حوزته الثقافية مجالاً جغرافيًّا جديدًا تمثل في مملكة سنغاي، التي أصبحت جزءًا من الدولة الإسلامية الوسيطية القوية، ولا سيما وأنّها قد أمدتها ببعض مصادر القوى الاقتصادية، وبذلك لم تنعزل سنغاي عن تطورات العالم الإسلامي في العصر الوسيط ومطلع الحديث، بل ساهمت فيه وتأثرت بأحداثه، فعاشت مرحلة قوته وتأثرت بضعفه، مما يعني بأنَّ تشكيل تاريخ

(1) عدي، حملة أحمد المنصور الذهبي إلى بلاد السودان، ص106.

(2) كان رحمه الله متوطنا بتنبكت، عاصر فيها كثيرًا من الأشياخ، كالفقيه اندغمحمد الكبير جد القاضي محمود بن عمر، والفقيه عمر بن محمد أقيت، وسيدي يحيى. راجع: السعدي، تاريخ السودان، ص37.

(3) السعدي، تاريخ السودان، ص47.

(4) المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص57.

(5) الوزان، وصف أفريقيا، ص167.

سنغاي لم يتم خارج التاريخ الإسلامي أو على هامشه.

فانتظم المجتمع فكريًّا ودينيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وفق التصور الإسلامي الذي عوّض بالتدريج المنظور الأرواحي الذي كان سائدًا بالمنطقة، فأصبح مجتمعًا إسلاميًّا لا يختلف عن باقي مجتمعات العالم الإسلامي، بل ربما فاقه في كثير من الأحيان، وذلك بالنظر إلى الصعوبات والعراقيل الجمّة التي واجهت مسيرة الإسلام بأفريقيا الغربية[1].

المراجع

أحمد، مطير سعد. 2004. الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي. بدون رقم الطبعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان.

الإدريسي، الشريف. تحقيق: نوحي، الواحي. 2007. أنس المهج وروض الفرج: قسم شمال أفريقيا وبلاد السودان. بدون رقم الطبعة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.

التكيتك، جميلة محمد. 1998. مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493-1528. الطبعة الأولى، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا.

التنبكتي، أحمد باب. 2000. كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج «الجزء الأول». بدون رقم الطبعة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب.

حسن، حسن إبراهيم. 1963. انتشار الإسلام في القارة الإفريقية. الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.

السعدي، عبدالرحمن. ترجمة: هوداس، أوكتاف، وبنوة، السيد. 1981. تاريخ السودان. بدون رقم الطبعة، ميزونوف، باريس، فرنسا.

الشكري، أحمد. 1999. الإسلام والمجتمع السوداني. الطبعة الأولى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

الشكري، أحمد. 2004. التأثيرات الثقافية المتبادلة ما بين المغرب ودول أفريقيا جنوبي الصحراء (الإسلام واللغة العربية)، ضمن ندوة «التواصل الثقافي بين ضفتي الصحراء الكبرى في أفريقيا». الطبعة الأولى، دار الوليد للنشر والتوزيع، ليبيا.

الصادقي، حسن. 2012. أضواء على الثقافة العربية في أفريقيا. منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب.

عبدالله ولد المصطفى، محمد. 2009. التدخل الفرنسي في موريتانيا (1854-1905) اكزافي كوبلاني نموذجًا. رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب.

عدي، مبارك. 2002. حملة أحمد المنصور الذهبي إلى بلاد السودان. رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب.

عمر موسى، عز الدين. 2003. دراسات إسلامية غرب إفريقية. بدون رقم الطبعة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

عيسى، عبدالله. 1435هـ/ 2014م. الإسلام مرجعية لمملكة مالي خلال القرن 8هـ/ 14م. مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، بريطانيا، أبريل، جمادى الآخرة، العدد 322، ص ص 78-83.

عيسى، عبدالله. 2008. الاستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال. رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب.

كعت، محمود. 1981. تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس. الطبعة الأولى، ميزونوف، باريس، فرنسا.

كعدان، صباح. 2004. تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر. الطبعة الثانية، منشورات جامعة دمشق، سوريا.

المسعودي، أبو الحسن علي. 1982. مروج الذهب ومعادن الجوهر «الجزء الأول». بدون رقم الطبعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.

المغيلي، محمد بن عبدالكريم. تحقيق: زبايدية، عبدالقادر. 1974. أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي. الطبعة الأولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

الوزان، الحسن. ترجمة: الأخضر، محمد حجي. 1983م. وصف أفريقيا. الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

(1) الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، ص211.

ويكيبيديا. 2014. خريطة مملكة سنغاي. على الرابط الإلكتروني (استرجاع 22/ 07/ 2014م):-
https://bit.ly/2Ct6lxJ

Delafosse, M. 1941. Les Noirs de l'Afrique Payot, Parkstone, Paris.

Elias, N. 1983. History of Timbuktu: the Role of Muslim Scholars and Notables 1400-1900, Cambridge University Press, Cambridge.

Trimingham, J.S. 1962. A History of Islam in West Africa, Oxford University Press, Oxford.

Islam as Reference of the Kingdom of Songay in West Africa during the16th Century

Abdullah Issa

Department of History and Civilization, Faculty of Arts and Humanities, Ben msik Casablanca, the Kingdom of Morocco.

https://doi.org/10.37575/h/rel/1698

ABSTRACT

This study is comprised of three parts. The first part tackles the question of the establishment of the Kingdom of Songay; the second examines the means that contributed to the dispersal of Islam within the population of the Kingdom of Songay while the third part focuses on the interaction of the people of Songay with Islam. Indeed, Islam became, with time, an official "reference" for the people and the kings of this Kingdom.

In conclusion, this study showed that Islam deeply transformed this society to be a typical Islamic society.

Key Words: Africa, Islam, Social change, Songay Kingdom.